الصورة الأدبية في صراع الأنا والآخر الخصم

في فكر الإمام علي بن أبي طالب

الدكتور الشيخ شبر الزهيري

أولاً: قضيتنا

الحديث عن الحضارة الإسلامية ليس حديثاً عن تاريخ فحسب وإنما هو حديث ينبغي أن ينصبّ بالدرجة الأولى عن واقع ومستقبل.

إنَّ العالم الإسلامي يعيش في ظروف تجعله أمام تحديات واحدة وهذا يتطلب عملاً موحداً لمواجهة التحديات ودرء الأخطار، وهذا العمل الموحد ليس إلاّ العودة إلى منهج الوحدة الحضارية التي جمته القرون الخوالي.

قد يخيل لبعضهم أنَّ الحضارة الإسلاميّة مثل سائر الحضارات التي سادت زمناً ثم بادت ولم يعد لها مكان في واقعنا ومستقبلنا، لكن الحضارة الإسلامية ليست مثل تلك الحضارات البائدة لأنها تقوم على منهج من فطرة الإنسان، من هنا فهي خالدة ويمكن تفعيلها متى ما عزمت الأمة على هذا التفعيل.

هذا الذي يعيشه العالم الإسلامي من تحولات في اتجاه إستعادة هويته وهذا الذي تشهده المنطقة من هجوم مكثف لمصادرة هذه الهوية إنما يدل بما لا يقبل الشك على أنَّ مقومات العودة قائمة بين ظهراني هذه الأمة وهي في انتظار الإرادة العامة لإستعادة دورها في تفعيل الطاقات وإنماء الدوحة.

والحديث عن الأدب، خاصة حينما يكون بنظرة نقدية، إنما هو حديث عن روح الحضارة وعن إنسان هذه الحضارة وكل ما في هذه الحضارة من عواطف ومشاعر تجاه الذات وتجاه الآخر. والأدب العربي، في عصوره المختلفة، بحاجة إلى قراءات نقدية، تستطيع أن تبين الجانب الحضاري من العلاقات الإنسانيّة في إطار العالم الإسلامي.

يقدم لنا الأدب العربي في كل أجزاء العالم الإسلامي العربية منها وغير العربية أروع الصور عن الامتزاج بين الشعوب والتعايش والتعاون بينها لخدمة التقدم العلمي والفكري ولخلق مناخ من الحب والود والتآلف بين بني البشر.

كما يقدم أيضاً صوراً من نقاط الضعف في هذه العلاقات استطاعت الروح الإسلامية العامة أن تتغلب عليها وأن تسجل في النهاية الانتصار للروح الحضارية الإسلامية القائمة على أساس تكريم الإنسان.

الدراسة التي يتضمنها هذا البحث اتجهت نحو البحث عن المشترك الحضاري بين أمتنا الإسلاميّة في الماضي ومحاولة ملامسة الحاضر في بعضها لكي نربط الماضي بالحاضر ولكي نشجع على تكوين رؤية مستقبلية لهذه الأمة.

والروح السائدة في هذا البحث هي محاولة اكتشاف الرؤية الحضارية الإسلاميّة القائمة على أساس تكريم الإنسان وعلى أساس الانفتاح على الآخر، ونحن في أمس الحاجة لمثل هذه الأبحاث خاصة في ظروفنا هذه حيث تحديات الهوية ومصادرة الكرامة والدفع نحو الهزيمة النفسية، فالشكر كل الشكر **مقدم إلى مهرجان الغدير العالمي الأول في إبراز هذا اليوم العظيم (الغدير) للعالم الإسلامي والعربي سائلين المولى أن يزيدهم توفيقاً وعلماً وعملاً.**

ثانياً: أهمية البحث وخطته

حين نتأمل أسس حضارتنا الإسلامية التي تقوم على الإيمان بقوله تعالى:

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم))[1] مما يؤسس لانفتاح إنساني نحو الآخر أيا كان دينه أو مذهبه أو عرقه خاصة أنَّ الخطاب القرآني كان خطاباً عاماً، فجسد دعوة للتعارف أي للحوار بين الناس كافة، وبيّن أن اختلاف الأمم والشعوب دعوة للانفتاح على الآخر المختلف الذي هو غنى للنفس الإنسانيّة، وقد جسد التراث الإسلامي عبر رموزه المشرقة هذا الانفتاح.

[1]- سورة الحجرات، الآية ١٣.

إننا لن نستطيع فهم الآخر المختلف قبل أن نفهم أنفسنا، لهذا علينا أن ننظر إلى كيفية تعامل أجدادنا معه، متى لجؤوا إلى الحوار، ومتى لجؤوا إلى السيف، كي ننهض اليوم في مسؤولية حوار الحضارات على أسس قويمة مستمدة من أعماق حضارتنا الإسلاميّة ومنسجمة مع قيم ديننا السمحة، في زمن يسعى فيه بعض أبناء هذا الدين، كما يسعى أعداؤه، إلى تشويهه.

حين نتأمل بعض رموز هذه الحضارة نلاحظ كيف كانت نظرتهم للآخر منفتحة موضوعية ترفض أن تكتسي بمشاعر العداء أو سوء التفاهم التي تعتري الإنسان، في كثير من الأحيان، حين يتعامل مع آخر مختلف معه في الرأي، إنها رؤية تغلّب مصلحة الأمة على المصلحة الذاتية، لذلك وجدنا الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) يرضى أن يكون مظلوماً على أن يكون ظالماً في سبيل هدف أسمى هو وحدة المسلمين، وحين امتلك السلطة السياسية، وأحاط به من ينازعونه السلطة مخالفين رأي الجماعة، نجده يحاورهم بالتي هي أحسن ولم يرفع السيف إلاّ بعد أن عجز الحوار، فقد كانت معظم رسائل الإمام علي بن أبي طالب (ع) في "**نهج البلاغة**" حواراً مُوجَهاً لمعاوية من أجل عُدولِه عن القتال وحماية دماء المسلمين. وبذلك جسد لنا الإمام (ع) القيم الإسلاميّة التي تُعلي قيمةَ العمل الصالح، بل وجدناه (ع) يجعل قيمة كلَّ امرئ ما يحسُن من عمل بعيداً عن قيمٍ جاهلية تعلي شأن النسب واللون.

إنَّ دراسة صورة الآخر الخصم في التراث والثقافة توسع آفاقنا، وتزيدنا معرفة بذواتنا، وتعلمنا كيف نقرأ الآخر بموضوعية بمعزل عن الهوى والتعصب، فتَغتني ثقافتنا عبر الانفتاح والتسامح.

ثمة ضرورة اليوم إلى دعوة الباحثين من أجل دراسة صورة الآخر في تراثنا، لكشف إنجازات الأجداد وإخفاقهم في هذا المجال، كي نفهم ذواتنا، ومثل هذا الفهم لن يكون إلاّ عن طريق فهم الآخر، وكيف تم التعامل معه.

المبحث الأول
دراسة الصورة الأدبية

أولاً: مقدمة نظرية

بدأ الاهتمام في العقود الأخيرة بأخذ فروع الأدب المقارن، وهو علم دراسة الصورة الأدبيّة (أو الصورولوجيا imagologie وقد شهد هذا العلم ازدهاراً ملحوظاً بسبب مناخ التعايش السلمي الذي بدأ يظهر لدى أغلب الدول، فقد لُوحظ أنَّ الصور التي تُقدِمُها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدراً أساسياً من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول والثقافات، سواء كان هذا إيجابياً أو سلبياً، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع الناجم عن الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى.

يعني سوء الفهم هذا رؤية غير موضوعية للذات وللآخر في الوقت نفسه، مع أنَّ الذات تدرك نفسها بفضل العلاقة مع الآخر، فالذات تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، لذلك فإنَّ أي تشويه في النظرة للآخر لا بّد أن يعني تشويهاً كامناً في الذات، وكما يرى "**آلان تورين**" في كتابه "**نقد الحداثة**" ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر إذ يتشكل الطرفان كذوات، وحين يتم الاعتراف بالآخر (بكونه ذاتاً) تندفع الذات إلى المشاركة في جهود الآخر في التحرر من العراقيل التي تمنعه من الحياة الإنسانيّة الكريمة، وهذه الغاية لا يمكن أن تكون فردية فقط، لأنَّ الذات إذا كانت شخصية فإنَّ العراقيل التي تمنع الإنسان من الحياة باعتباره ذاتاً هي غالباً ما تكون اجتماعية إدارية سياسية اقتصادية .. تمارس قهراً على الذات، وبالتالي تمتنع هذه الذات عن التفاعل مع الآخر الذي تراه مدمراً لكينونتها.

إذاً كل صورة لا بّد أن تنشأ عن وعي، مهما كان صغيراً، بالأنا مقابل الآخر، وهي تعبيراً أدبي يشير إلى تباعد ذي دلالة بين نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين، وبذلك تكون الصورة [التي هي جزء من التاريخ بالمعنى الوقائي والسياسي] جزءًا من الخيال الاجتماعي، والفضاء الثقافي

أو الأيديولوجي الذي تقع ضمنه، فيتضح لنا أنَّ الهوية القومية تقف مقابل الآخر الذي قد يكون مناقضاً للأنا أو مكملاً لها، تبعاً للعلاقة التاريخيّة التي نشأت بينهما.

ويمكن للمرء أن يلاحظ أنه في العقود الأخيرة ترسخت دراسة الصورة الأدبية باعتبارها فرعاً من فروع الأدب المقارن.

ثانياً: أسباب تباين صورة الأنا عن الآخر

إن التباين كبير بين صورة شعب من الشعوب في أدبه القومي (صورة الأنا) وبين ذلك الشعب في الآداب الأجنبية (صورة الآخر) ويمكن رد هذا التباين إلى أسباب أبرزها:

١- إن صورة الأنا تستند إلى تجارب وخبرات غنية وكافة قام بها الأديب في المجتمع الذي يصوره، إذ ولد ونشأ فيه وهو يعرف العديد من أبنائه عن كثب وتربطه ببعضهم علاقات قرابة وصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية والنفسية، وهكذا فإن المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه غنية ودقيقة وتفصيلية، وذلك خلافاً لصورة يقدمها أديب لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة "أليس أهل مكه أدرى بشعابها".

٢- أما السبب الثاني فيتمثل في أن الأديب الذي يصور مجتمعه هو ابن ذلك المجتمع، وهو مرتبط به ماديا واجتماعيا ونفسيا واخلاقيا. إن من المعروف أن الأديب الحق يحمل هموم مجتمعه، ويحرص عليه حرصه على نفسه، فهو ملاذ أفراحه وأحلامه، تجتمع فيه ذاكرة الماضي إلى جانب رؤى المستقبل.

لذلك حين يقدم صورة لمجتمعه تكون مطبوعة بطابع العلاقة الاجتماعية والنفسية والاخلاقية التي تشد الأديب إلى مجتمعه وما يشكل هويته.

وقد يرسم الأديب أحيانا صورة سلبية للمجتع، وهذا ما نلاحظه في كثير من الأعمال الأدبية، ولكننا نجد وراء تلك الصورة رغبة عارمة في الإصلاح والتغيير نحو الأفضل، وليس الإساءة إلى المجتمع وهدمه، وهذا لا ينطبق على صلة أديب لا تربطه به علاقة توحد قومي.

إن الصورة الأدبية التي يرسمها أديب ما لشعب أجنبي لا تستند في أغلب الحالات إلى أساس صلب من التجربة والمعرفة والإحاطة بأوضاع ذلك الجتمع، وكثيراً ما يكون مصدر تلك الصورة أسفاراً أو رحلات قام بها الأديب إلى بلد أجنبي، أو إقامة الأديب في ذلك البلد فترة طويلة بغرض الدراسة أو العمل أو العلاج، وفي حالات أخرى يقيم الأديب في البلد الأجنبي لأنه ضاق ذرعاً بالعيش في بلاده، كإقامة عبد الوهاب البياتي في إسبانيا بسبب الظروف السياسية في بلده.

وقد لا تكون المعرفة المباشرة للبلد الأجنبي مصدراً من مصادر الصورة عنه، إذ كثيراًَ ما ترجع تلك الصورة إلى مطالعات الأديب أو إلى أحاديث سمعها حول البلد الأجنبي، أو تستند إلى المطالعة وامتلاك الأديب مخيلة واسعة في المقام الأول، وليس إلى معرفة دقيقة بالمناطق التي يصفها بكل تفصيل، أي جبال كردستان ومناطق الصحراء العربية!

إن أهم ما يبغي التأكيد عليه، هنا، هو أن الصورة التي يرسمها أديب ما لمجتمع أجنبي لا تعبر عن مشكلات هذا المجتمع وهمومه وقضاياه، ولا تنبع من التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل، وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قومياً، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولاً وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك تلبي الصورة الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسية أو فنية أو اجتماعية للشعب الأجنبي، دون أن تلبي حاجات المجتمع المدروس.

الصورة فعل ثقافي لأنها صورة عن الآخر، وما عدا ذلك فنحن حين نتكلم عن الصورة الثقافية، يجب أن تدرس كمادة، وممارسة أنتروبولوجية فها مكانتها، ووظيفتها ضمن العالم المركزي المسمى

هنا (خياليا) والذي لا ينفصل عن أية مؤسسة اجتماعية أو ثقافية، لأن المجتمع نفسه يرى نفسه، ويكتب عنها، ويفكر فيها، ويحلم بها من خلال هذا العالم الرمزي.

ومن المعروف أن الصورة لغة (تختلط فيها المشاعر بالأفكار) وهي ترجع إلى واقع ترسمه وتدل عليه، لكن الخيال هو الذي يرفع لغة الصورة إلى مرتبة الجمال الفني، وهو في الوقت نفسه تعبير عن المجتمع والثقافة، إذ يجسد المسرح والمكان الذي تعبر فيه اللغة عن نفسها بطريقة مجازية، أي بمساعدة الصور والأشكال التي يرى فيها المجتمع ذاته فيتحدد وبالتالي يستطيع أن يحلم.

إذا تتأثر صورة الآخر بحلم اليقظة الذي يراودنا حوله، وبذلك بات الخيال الاجتماعي مشكّلاً أفق البحث عن صورة الآخر، ومن هنا نجد أن الخيال يشكل جزءًا من التاريخ بالمعنى الواقعي والسياسي والاجتماعي.

وهناك مظاهر آخرى تتدخل في تشكيل الصورة مثل ظاهرة "العدو الموروث" والاستعمار ونتائجه الايديولوجية والثقافية (العنصرة والتغريب الفني والأدبي) كما نجدها تتدخل في مضمون الخيال الاجتماعي في لحظة تاريخية معينة، لذلك من الواضح ارتباط الخيال بماضي المجتمع وصيرورته.

إن المتأمل للصورة يلاحظ خضوعها لعناصر مشوها لها. وخاصة شيوع النمط الذي يعد شكلاً أولياَ للصورة أو كاريكاتورياً، تتجلى هذه الصورة من خلال كذب النمط أو تأثيراته المؤذية على المستوى الثقافي، فتبتعد عن التجدد، وتبدو أقرب إلى الآلية والجمود، مما يسيء إليها ويبعدها عن الرمزية والتعدد الدلالي، وبذلك عندما يشيع النمط في الصورة تختزل إلى رسالة واحدة وجوهرية، هي بالنتيجة صورة أولى وأخيرة للآخر، أي صورة جامدة، تصلح لكل زمان من دون أن يطرق عليها أي تغيير، وبذلك يبتعد النمط عن الصورة الحقيقية، ليفسح المجال للصورة المشوهة، التي تعتمد النظرة الثابتة، وتجسد زمناً ماضياً متوقفاً تبدو تعبيراً عنن معرفة تسمى جماعية، تسعى كي تكون صالحة في كل لحظة تاريخية، فإذا كانت ليست متعددة الدلالات لكنها متعددة السياقات، إذ يمكن استخدامها في أية لحظة، وبذلك يطرح النمط بصورة خفية طبقة ثابتة وتفرعاً ثنائياً للعالم والثقافات (إن قول

الفرنسيين أثناء التعريف الذاتي بأن الفرنسي شارب النبيذ هو نمط يتعارض مع الإنكليزي شارب الشاي أو الألماني شارب البيرة) وذلك بهدف الإيحاء بأن الفرنسيين يحتلون مرتبة أعلى من غيرهم.

يعدّ النمط المعبر عنه بالسرد والصورة والسيناريو بداية ممكنة للأسطورة (التي هي معرفة وسلطة وتاريخ للجماعة، وهي قصة أخلاقية تقوي تماسك الجماعة التي أنتجتها) لذلك نجد الصورة موازية للأسطورة، إذ لو قارنا بين اللغة الرمزية واللغة الاسطورية نستطيع أن نتبين أن الصورة مثل الأسطورة تمتلك القدرة على إحياء قصة ما وجعلها نمزذجية، تتحرك في عصرنا عبر رؤية الماضي!

تخصص دراسة الصورة الإطار المكاني الزمني من أجل فهم أسس الصورة، وهذا الإطار لا يعني أنه مولد لرسم وصفي خارجي، إنه جزء من عناصر أخرى متشابكة في السرد (الشخصيات، الراوي...) يستطيع أن يقدم لنا بعض التفسيرات المضيئة.

إذا علينا دراسة إجراءات تنظيم صورة الأجنبي، أو نحاول إعادة تنظيمها: مثل طريقة التحديد الفضائي والتفرعات الثنائية الناتجة عن حلم اليقظة عن الفضاء الأجنبي (الأعلى مقابل الأدنى، الحركات المتصاعدة مقابل حركات السقوط والانهيار).

يجب الانتباه إلى كل ما يجعل الفضاء الخارجي مماثلاً للفضاء الداخلي (الشخصية، أنا الراوي) خاصة حين يستطيع الفضاء الأجنبي أن يعيد انتاج مشهد عقلي أو يعطيه دلالة تساعد على نسج علاقات بين الفضاء الخارجي والفضاء النفسي على المستوى المجازي على الأقل (مثل دراسة الأماكن المفضلة والمناطق المعطاة أهمية أي قيماً إيجابية أو سلبية، وكل ما يسمح بترميز الفضاء، وكل ما يطلق عليه آخرون تقديس الفضاء).

كما علينا أن ننتبه إلى الفضاء الزمني إذ من انمفيد ملاحظة الإشارات المتسلسلة تاريخياً، لأن التواريخ التي يقدمها النص تساعد على إعطاء صورة دقيقة للأجنبي، شرط أن نكون حذرين إزاء كل ما يمكن أن يبدو أسطورة للزمن التاريخي والسردي عند اللزوم، كما يجب الانتباه إلى أن الأنماط يمكن أن تمنح النص بعداً تاريخياً ذا قيمة قصوى، ولا شك أن تقديم الأجنبي يجعله يشارك في الزمن الأسطوري خارج كل حدود دقيقة، الأمر الذي يعني ابتعاداً عن الزمن المتتابع (الخطي) للتاريخ

السياسي (الذي يسير في اتجاه واحد لا يتغير ولا يتوقف) وهكذا يبدو لنا أن هناك تعارضاً بين الزمن الخطي والزمن الدائري للصورة.

ومن العناصر المكونة للصورة أيضاً تلك العناصر التي تتكثف فيها تعبيرات الآخر والسمات والحركة والحديث والعلاقات الاجتماعية والعناصر التي تتعدى التعريف البسيط حاملة دلالة خاصة ضمن آلية النص، وبذلك نجد كثيراً من العلاقات داخل النص الأدبي مفيدة من أجل دراسة الآخر، مثل دراسة العلاقات الذكرية والأنثوية ضمن الانتساب إلى ثقافات متنوعة (الرجل العربي يقيم علاقة مع المرأة الغربية أكثر من المرأة العربية مع الرجل الغربي).

وهنالك الوصف المخالف الذي يساعد على تقديم صورة الآخر من خلال ثنائيات متناقضة تدمج الطبيعة والثقافة مثل متوحش مقابل متحضر، وبربري مقابل مثقف وإنسان مقابل حيوان ورجل مقابل امرأة وكائن متفوق مقابل كائن ضعيف. ومن مكونات الصورة أيضاً وصف جسد الآخر ومنظوم قيمه ومظاهر ثقافته بالمعني الإناسي (مثل الدين والمطبخ واللباس والموسيقى...) وهنا يساعدنا علم تطور الإنسان (الإناسي) من الناحية الثقافية، فنواجه النص الصوري بوصفه شاهداً ووثيقة عن الأجنبي، وبذلك تحاول دراسة الصورة فهم كيف كتب النص الذي يعد تطوراً وصفياً وإدراكياً في الوقت نفسه، فنستطيع أن نتعرف ما قيل عن ثقافة الآخر، وبذلك صارت توضيحاً كاملاً لحوار بين ثقافتين من خلالها يقدم الأجنبي عبر تشكيل جمالي وثقافي أي يقدم عبر(الصورة والسيناريو).

ثالثاً: حالات فهم الآخر وقراءته:

لمحنا من خلال ما تقدم معالم عديدة لقراءة الآخر وفهمه، يجدر بنا تأملها وتوضيح أهم الحالات التي يمكننا تلمسها مما سبق:

١- الحالة الأولى (التشوية السلبي): في حالة العداء للآخر حيث تؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر (المعادي) نظراً للمشاعر العدائية وسوء الفهم، لذلك لن يسمح بسماع صوت (الآخر المعادي) فيبرز الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى

من الثقافة المحلية، وبذلك نواجه علاقة وصور سلبية، يمكن أن ندعوها بالتشوية السلبي، وعلى سبيل المثال بدت لنا صورة الأوروبي (المستعمر) في الأدب العربي مشوهة في كثير من الأحيان (إنه إنسان غير أخلاقي...). في مثل هذه الحالة تكون وظيفة صورة الآخر إثارة مشاعر العداء تجاه الآخر ومشاعر الولاء والتضامن والتوحد إتجاه الذات أو الانا أو النحن، وبذلك تتحول الصورة إلى وسيلة من وسائل التعبئة النفسية وعلى هذا قدم الأدب الصهيوني الحديث مثالاً على ذلك.

٢- الحالة الثانية (التشوية الإيجابي): يرى فيها الكاتب (أو الجماعة) الواقع الثقافي الأجنبي متفوقاً على الثقافة الوطنية الأصلية، لذلك نجدها على نقيض الحالة الأولى تعدّ نفسها في مرتبة أدنى، فيترافق التفضيل الإيجابي للأجنبي مع عقد نقص تعاني منها الذات تجاه ثقافة الآخر، وأسلوب حياته، فنجد أنفسنا أمام كاتب أو جماعة من الكتاب يعانون من حالة من الهوس والانبهار بالآخر، وبذلك يقدم الوهم في صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له، مما يمكننا أن ندعو هذا التشويه بالتشويه الإيجابي، فمثلاً نجد بعض الكتاب منبهرين بالنموذج الغربي للحياة (حرية، ديمقراطية،...) وهذا يعني تمجيداً للحضارة العربية وتجاهلاً لمشكلاتها، وعدم تبني أي موقف نقدي باتجاهها، رغم النكبات التي ما زال العرب يعانون منها إلى اليوم بسبب النزعة العدوانية الغربية.

٣- الحالة الثالثة (التسامح): حيث تنطلق دراسة الصورة من رؤية متوازنة للذات والآخر، لذا نجد التسامح الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي، إذ يطور تقويم الأجنبي وإعادة تفسيره عبر رؤية موضوعية، تنظر إلى الآخر باعتباره نداً، فينتفي الهوس والانبهار (الاستعارة من الآخر) والرهاب (الذي ينفي الآخر ويفترض الموت الرمزي له، وبذلك يعبر التسامح طريقاً صعباً يمر عبر الاعتراف بالآخر حيث تتعايش الأنا مع الآخر، وتراه نداً غير مختلف (أي غير دخيل أو هامشي...) ولا شك أن التسامح يحتاج إلى نضج فكري يقوم على التأمل

والتمثل على استيراد الأفكار والمعطيات الأجنبية، وبالتالي يحتاج إلى حوار دائم بين الذات والآخر بعيداً عن العقد النفسية (الهوس، والرهاب).[1]

[1]- عدد من المقارنين الفرنسيين، بإشراف بيير سفيل، الوجير في الأدب المقارن، ت. د. غسان السيد، ط١، ١٩٩٩م (فصل من الصورة الثقافية إلى الخيال بتصرف.

المبحث الثاني

الآخر في فكر الإمام علي بن أبي طالب (ع):

يحسن بنا في البداية أن نشير إلى أننا نقصد بمصطلح الآخر كل من وقف في وجه الإمام (ع) معادياً بالسيف أو مخالفاً في الرأي سواء أكان من الرعية أم من علية القوم! ونعتقد أننا لا نستطيع أن ندرك عظمة أي فكر إلا في طريقة تعامله مع الآخر المختلف، لذلك لن نستطيع أن نفصل الفكر لديه عن السلوك والفعل.

والغاية من ذلك أن نستلهم فكر الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي تربّى في حضن الإسلام في بيت رسول الله (ص) ونتعلم كيف يتجلى الإسلام حضارة وانفتاحاً على الآخر، ونعايش الإيمان وقد وقر في القلب وصدّقه العمل، فنجد قدوتنا في الحياة بعد أن زاغت أبصارنا وعقولنا.

إننا حين نعود إلى أمثال هذه الشخصيات، التي صدقت ما عاهدت الله عليه، يتجلى لنا الإسلام بأروع صورة في زمن يسعى الكثيرون إلى تشويه صورته.

وسنعتمد في بحثنا هذا على أقوال الإمام وأفعاله، التي وردت في كتاب "نهج البلاغة" الذي جمعه الشريف الرضي، وحققه الشيخ محمد عبده[1].

يرى بعض الباحثين أن الرعية المسلمة اعتادت استبداد الحاكم، الذي يظن نفسه أشبه بإله، وبذلك بات الاستبداد جزءًا من طبيعتها وتراثها، تستكين للحاكم المستبد، الذي ينفرد برأيه، كما ينفرد بسلطته، ينقص ذلك ما لمسناه من أقوال وأفعال لدى الإمام علي (ع) الذي حكم المسلمين أربع سنوات، فقد وجدناه في "نهج البلاغة" يقول لرعيته: "لا تُكَلِّمُونِي بَمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ [الغضب]، وَلاَ تُخَالِطُونِي بالْمُصَانَعَةِ...، لاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَال بِحَقّ، أَوْ مَشُورَة بِعَدْل، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ واحد لاَ رَبَّ غَيْرُهُ". ينطلق الإمام

[1]- شرح محمد عبده، ج-٢، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ص- ٢٠١.

علي(ع) من مبدأ إسلامي يساوي بين البشر جميعاً، وينفتح على الإنسان مهما كان موقعه، إذ لا فرق بين حاكم ومحكوم، فالجميع يشتركون في العبودية لله تعالى، لذلك أراد الإمام علي(ع) أن تعامله الرعية كواحد منها، لا كما تعامل الجبابرة المستبدين، فتحدثه دون خوف ودون أن تخشى غضبه عليها، كما يطلب منها أن تحدثه بصدق دون تملق، بل يدعوها إلى أن تسدي إليه النصيحة، بقول الحق والإشارة إلى العدل، لأنه لا ينزّه نفسه عن الخطأ في قول أو فعل!! وهو الإمام الفقية ربيب رسول الله (ص).

وفي موضع آخر نجده يكرر طلب النصح من الرعية، ويبين المساواة بينه وبينها في الحقوق الواجبات " أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ في الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالاْجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ[1].

نلاحظ أن الإمام علي (ع) الذي كان للإسلام فقيهاً وعاش من أجله مجاهداً ، لا يستعلي عن الرعية بل يعلن حاجته إلى نصحها كما هي بحاجة إلى نصحه، ويبين لها واجباته وذلك بأن يوفر لها أمورها المادية والمعنوية (التعليم) كما يرتقي بحياتها، وهي بالمقابل يتوجب عليها الوفاء والطاعة، فقد لاحظنا كيف دعاها إلى نصحه أولاً ثم إلى طاعته.

رفض في حياته اليومية مظاهر الأبّهة التي كانت تحيط بحكام غيره، ففي مسيره إلى الشام التقى دهاقين الأنبار (زعماء الفلاحين من العجم) فترجلوا له واشتدّوا بين يديه، فقال لهم: "ما هذا الذي صنعتوه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال" والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون به على أنفسكم في دنياكم وتشقون به في آخرتكم[2].

لن يقبل هذا التصاغر من الرعية وإسباغ مظاهر الأبّهة عليه سواء أكانوا من الفرس كما رأينا قبل قليل أم من العرب، فحين مشى شرحبيل الشيباني وكان من وجوه قومه، وكان (ع) راكباً، فقال له: "فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن".

---

[1]- نهج البلاغة، ج١، ص ٨٤.
[2]- المصدر نفسه ، ج٤، ص ١٠

إذا يرفض مظاهر التعظيم من أجل أن يحافظ على نفسه، ويبعدها عن العجب والتكبر، ومن أجل أن يحافظ على كرامة رعيته.

وهو لن يطالب هذه الرعية بأي التزام إلا بعد أن يحقق العدل بنفسه فيما بينها: "الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ". ةلا شك أن إحساس المساواة بين الناس بعزّز في الأعماق شعور الكرامة والانتماء إلى القيم التي يدعو إليها الإمام.

وقد جعل من نفسه قدوة صالحة لرعيته، فلم يكتف بالقول وإنما صدقّه بالعمل: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَة إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنْهَا كُمْ عَنْ مَعْصِيَة إِلاَّ وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا"[1].

نجد هذا الفكر الذي قد نراه اليوم قريباً من المثال متجسداً على صعيد تطبيقي وواقعي، فقد كان يسمح بنقده، وفعلاً تعرض لنقد أصحابه لأنه يساوي في العطاء بين المسلمين، مما ألّب عليه بعض كبار الصحابة (أمثال طلحة والزبير) فرد عليهم (ع) : " أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ ... لَوْ كَانَ الْمَالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ ..أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهَ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الاخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ" [2].

وحين قام برد قطائع عثمان إلى بيت مال المسلمين، نجد أحدهم ينصحه بأن يهادن القريشيين، ويبقي لهم ما حصّلوه أثناء حكم من سبقهم، فجيب: "مَالي وَلِقُرَيْش! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلاَُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالاْمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ!". يرفض الإمام العادل أن يميّز بين القرشيين وغيرهم، سواء في العطاء ام في المعاملة، لذلك تحالف أغنياء قريش ضدّه وقاتلوه في موقعة الجمل، تحت ستار الثأر لدم الخليفة.

وفي ساحة الحرب نجده يستمع لرأي جنده، ويضطر للأخذ به رغم عدم اقتناعه بصحته، فقد وجدناه في موقعة صفّين، حين اضطرب عليه أصحابه في أمر التحكيم، يستجيب لرأي الأغلبية وهو مدرك أنهم على خطأ، ليس فقط في قبول التحكيم، بل حتى في اختيار الحكم، فقد اختار عبد الله بن

[1]- نهج البلاغة ، جزء ٢، ص ٩٠.
[2]- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦-٧.

عباس واختاروا أبا موسى الأشعري، فنزل عند اختيارهم رغم أنه يفضل عبد الله بن عباس عليه لحنكته وذكائه : " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهَكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً! وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً! وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!"[1].

يحسّ القائد بجنده وقد أتعبتهم الحرب، لذلك لا يطالبهم بما هو فوق طاقتهم، ويستجيب لرغبتهم في إيقاف القتال رغم أنه يسير في صالحهم، يبدو لنا سماعه لصوت الآخر قد بلغ أقصى درجة ممكنة، حين حصل تبادل للأدوار بين الحاكم والمحكوم، فقد أحس الأمير بأنه مأمور من قبل جنده!.

إذا ينأى الإمام في معاملته لرعيته عن الاستبداد برأيه، رغم أنه على صواب، ويترك لهم حريّة الاختيار، دون أن يرهبهم بمكانته أو بسيفه، فهو حريص على نمو علاقة استثنائية تقوم على الاحترام والود المتبادل بين الحاكم والمحكوم. إنّه يصغي إلى رأي الأكثرية، رغم عدم نضجها، وفجاجة رأيها ولا يلزمها الأخذ برأيه، الذي تثبت الأيام صوابه؛ وبعبارة أخرى يعتمد رأيها رغم عدم أهليتها لممارسة الديمقراطية بلغة اليوم. وخير دليل على ذلك أنها بعد التحكيم، تعود لرأيه، لكن بعض الجند بدل أن يفيء إلى الرشد نجده يتهم الإمام بالكفر ويخرج عليه لقبوله التحكيم! بل وجدنا من يتجرّأ عليه من رعيته (أهل العراق) ويتهمه بالكذب، فيناقشهم مستهجناً، دون أن يكفرهم، أو يهدر دمهم! ويبين ضعف رأيهم مستنداً إلى حقائق في تاريخه الشخصي: "قاتلكم الله فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به، أم على نبيه؟ فأنا أول من صدّقه".

ثانياً – الآخر: أهل الذمّة من الرعية:

ساوى الإمام بين أهل الذمة وبين المسلمين، وهو يدعو عماله وولاته إلى أن يعملوا وفق هذا المنهج، ففي كتاب ينصح فيه واليه الأشتر، الذي أرسله للولاية على مصر، يقول: " وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ١٨٦-١٨٧.

الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الَعَمْدِ وَالْخَطَاَ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ"[1].

يستخدم الإمام لفظة "الرعية" للدلالة على الرعايا المسلمين وغير المسلمين، كما يستخدم لكليهما ضمير جماعة الغائبين، وبذلك توحدهما دلالة هذا الضمير، كما توحدهما دلالة الأفعال التي يقوم بها الوالي تجاه رعيته المسلمة وغير المسلمة. وحتى حين أراد أن يصنفهما إلى صنفين (مسلمين وغير مسلمين)، نجده يركز على ما يجمعهما (نظير لك في الخلق) أي نظير لك في الإنسانية، لذلك عليك أن ترفق بهم كما ترفق بالمسلمين، وتوليهم عطفك ومحبتك، فهم بشر مثلك يخطئون ويصيبون فيدعوه إلى العفو عنهم، كما يحب أن يعفو الله عنه، وهنا يركز الإمام على أمر يهم الولاة وهو جمع الضرائب (الزكاة والجزية) فيطالبه بالعدل بين المسلمين وغيرهم أثناء جمعها فلا يرهقهم مادياً ولا معنوياً.

كما يدعوه، في الكتاب نفسه، إلى المساواة بين المسلمين وغيرهم في الثواب والعقاب، فهم جميعاً أمانة في عنقه، ما داموا يقدمون الخدمات للدولة، لذلك يطالبه بالتزام آداب واحدة في جباية الأموال من المسلمين وغيرهم: " وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَد مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهَد، إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدى بِهِ عَلَى أَهْلِ الاْسْلاَمِ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الاْسْلاَمِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ".

يرفض الإمام أن يمارس عماله أساليب القهر في تحصيل أموال الدولة كما حصل بعد خلافته، حين صار كثير من الحكام المسلمين جباة لا دعاة، وقد دعا الإمام إلى استخدام السيف في حالة واحدة فقط، هي حالة الاعتداء على المسلمين عندئذ يتوجب عليهم قتال من يقاتلهم دفاعاً عن الدين والكرامة.

[1]- نهج البلاغة، جزء ٣، ص ٨٤.

أما في حالة السلم فيتوجب على الوالي المساواة في المعاملة، لأن الرعية، كما يبيّن في كتابه إلى الأشتر، طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، لذلك يعدد أصنافها: جند الله، كتاب العامّة والخاصّة ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية، وهذه الأصناف لا غني لبعضها عن بعض في تدبير أمور حياتها.

ثالثاً – الآخر : الخلفاء الراشدون:

إثر وفاة الرسول (ص) اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة لانتخاب خليفة للمسلمين، وحين استقر رأيهم على أبي بكر الصديق، أتاه كل من العباس وأبي سفيان بن حرب لمبايعته من أجل الخلافة، فرفض قائلاً لهم: " أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ المُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ المُفَاخَرَةِ".[1]

رفض أن يشق صف المسلمين ووحدتهم، فالمهم لديه هو أن يرسّخ دعائم الدين، بعيداً عن الفتن والعصبيات، إذ لن ينجو المسلمون إلا إذا ابتعدوا عن الخصومة والمفاخرة بالنسب ليعملوا من أجل رفعة الإسلام والمسلمين.

وفي كتاب "نهج البلاغة" نجده ينصح الخليفة ابن الخطاب حين استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه، فيخلص له النصح قائلاً: " إِنَّ هذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خِذْلاَنُهُ بِكَثْرَة وَلاَ بِقِلَّة، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُود مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَومَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بَالأِسْلاَمِ، عَزِيزُونَ بَالاجْتِماعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ(١) مِنْ هذِهِ الاَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى

[1]- نهج البلاغة، جزء ١، ص ٤٠.

يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ. إِنَّ الاَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هذا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ". [1]

يلاحظ المتأمل في نصيحة الإمام علي(ع) للخليفة ذلك التمهيد الذي بدأ به نصحه، بأن النصر من عند الله، سواء شارك الخليفة بنفسه أم لم يشارك، ثم ينظر إلى مساوئ المشاركة على الصعيدين الداخلي والخارجي، فحياة المسلمين سيصيبها الخلل حين يتركها وليّ الأمر ليشارك في قتال الأعداء إذ يشكل رمز وحدتها، لذلك فإن ابتعاده عن مركز الخلافة سيطمع ضعفاء النفوس من العرب فيمزقون وحدة الأمة! أما على الصعيد الخارجي فيبين أهمية الخليفة في نظر الأعداء، إذ يمثّل رأس المسلمين، لذلك سيحرصون على قتله كي يحققوا النصر، ويفرقوا شمل المسلمين.

ويبدو لنا الإمام معجباً بالخليفة عمر بن الخطاب، مادحاً تمثله لقيم الإسلام من استقامة وتقوى، كما كان معجباً بحزمه، فقد "خلف الفتنة وأقام السنّة، ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها وسبق شرّها، أدّى إلى الله طاعته وأتقاه بحقه"[2]. إنّ المتأمل في كتاب "نهج البلاغة" يلاحظ مدى حرص الإمام علي (ع) على وحدة المسلمين في أقواله وسلوكه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وحين بايع المسلمون عثمان بن عفان نجده يؤكد هذا الحرص "لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لاَُسْلِمَنَّ مَاسَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِاَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيَما تَنافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ"[3].

رفض الفتنة رغم إيمانه بأحقية الخلافة، فلم يقاتل أحداً من الصحابة من أجل الفوز بها، خوفاً على دين الله، وإيماناً بالمصلحة العامة للمسلمين، كما رفض السلطة في خلافة أبي بكر وفي خلافة عقمان (حين أتاه بعض أقاربه والرعية مبايعين) من أجل وحدة المسلمين، ورضي بأن يكون مظلوماً على أن يكون ظالماً، فهو لم يكن مشغولاً بزخارف الدنيا، بل مشغولاً برضى الله تعالى، ومثل هذا الموقف قلّما نجده في تاريخنا!.

---

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ٢٩-٣٠.
[2]- المصدر نفسه، جزء ٢، ص ٢٢٢.
[3]- المصدر نفسه، جزء ١، ص ١٢٤.

إن مثل هذا الفكر الواعي لمصلحة الإسلام، الذي تجلى سلوكاً وعملاً لدى الإمام، افتقدناه لدى بعض الصحابة، الذين شقوا صفوف المسلمين من أجل المال والمنصب، حين آلت الخلافة إلى الإمام!.

لو تأملنا موقفه حين حدثت الفتنة على الخليفة عثمان بن عفان الذي استنجد به، لوجدناه ينجده، وقد وجدنا مثالاً على ذلك في "نهج البلاغة" حين أرسل له رسالة، وهو محاصر، عن طريق عبد الله بن عباس، يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع (حيث كان للإمام رزق فيها) ليأمر الناس بأن يقلوا هتافهم باسمه للخلافة، وكان قد سأله مثل ذلك من قبل، فأجابه، لذلك قال (ع): " يَابْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلاَّ أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ. أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الاْنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً"[1].

رغم أن الناس يدعونه لاستلام الخلافة ويهتفون له، إلا أنه رفض ذلك، ويقي متعاوناً مع الخليفة، يلبي أوامره، وينجده جيئة وذهاباً، فكأنه يعمل لديه بالسخرة!

إن الإمام التقي ينجد الخليفة، أثناء الفتنة، وهو يعلم أنه أساء التصرف في أموال المسلمين، لذلك يخاف أن يلحق به إثم هذا التصرف!

وبعد انتهاء هذه الفتنة، نجده يصفها، ويبيّن خطأ الخليفة وخطأ الرعية معه: "اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الاْثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَعَ، وَللهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ في المُسْتَأْثِرِ وَالجَازِعِ".[2]

لا يقف الإمام مع طرف في الفتنة دون طرف، بل يحمّل الحاكم والمحكوم المسؤولية، ويبيّن كيف أساءت الرعية في اقتصاصها من الخليفة! ورغم ذلك لا يستطيع أن يكفّر الخليفة ولا الرعية في اقتصاصها من الخليفة! ورغم ذلك لا يستطيع أن يكفّر الخليفة ولا الرعية، بل يترك أمرهما لله تعالى.

---

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ٢٣٣.
[2]- المصدر نفسه ، جزء ١، ص ٧٦.

وقد وجدنا من يعيب عليه (كما فعل معاوية في إحدى رسائله) أنّه بايع من سبقه من الخلفاء مكرهاً فردّ عليه: "وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلاَ مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ!"

رابعاً – الآخر الخصم: طلحة والزبير والسيدة عائشة.

ما إن استلم الإمام علي(ع) الخلافة، حتى كثر خصومه، أولئك الأغنياء الذين كانوا يتمتعون بامتيازات زمن الخليفة السابق، فقد أدرك هؤلاء جرأة الإمام علي (ع) في الحق والعدل، إذ لا هم له سوى مرضاة الله تعالى، وقد خاض خلال خلافته القصيرة عدّة وقائع مع خصومه (موقعة الجمل، موقعة صفين، موقعة النهروان...إلخ) وقد منعه انشغاله بمحاربة الفتن الكثيرة من التفرغ للحياة المدنية! ومع ذلك أسس لدولة إسلامية نموذجية.

موقعة الجمل

حين أقبل طلحة والزبير على الإمام علي (ع) لمبايعته اشترطا عليه شرطاً رفضه (نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر) فيقول لهما: "لا ولكنكما شريكان في القوة، والاستعانة، وعونان على الهجر والأود"[1]. وبذلك رفض أن يكونا معه على رأس الدولة، لكنه طلب منهما أن يتحملا المسؤولية معه، يساعدانه بما يملكان من قوة. بعد هذه المبايعة المشروطة، يبدو أنهما عتبا عليه، لأنه ترك مشورتهما ولم يستعن في الأمور بهما، فيجيبهما موضحاً تسرعهما في العتاب، قبل أن يريا الحقيقة، فهما توقفا عند أمر بسيط لم يقم به الإمام، ولم يريا الأمور المهمة التي حققها: "لَقَدْ نَقَمْتُما يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً، أَلاَ تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ وأَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ ؟!"

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ١٨٤-١٨٥.

ثم يبيّن لهما سبب عدم استشارتهما: وهو أنه اعتمد في حكمه على كتاب الله وسنّة رسوله (ص)، لذلك لم يحتج إلى رأيهما أو رأي غيرهما، وهو يبين لهما ولعامة المسلمين، أنه لن يستعلي عن استشارتهما واستشارة إخوانه من المسلمين إذا حدث أمر يجهل حكمه كذلك نجدهما قد عتبا عليه أمر التسوية في العطاء، وعدم التمييز بينهما وبين عامة المسلمين، فيحاورهما بهدوء " لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلاَ وَلِيتُهُ هَوىً مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُما مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله) قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللهِ، عِنْدِي وَلاَ لِغَيْرِكُمَا فِي هذَا عُتْبَى. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ. رَحِمَ اللهُ رَجُلاً رَأَى حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ".[1]

بيّن لهما أنّه ينفذ حكم الله في توزيع العطاء بالعدل بين الناس، وهو في هذا الأمر ليس بحاجة إلى مشورة أحد، لأن ذلك واضح في كتاب الله وسنّة رسوله (ص)، فلا داعي لأن يعتب عليه أحد، إذ أنه يمارس الحق، ويدعوهما، بطريقة غير مباشرة عن طريق الدعاء (رحم الله...) إلى لاسير في هذا الطريق ومساعدته في إحقاق الحق ورد الباطل. نعتقد أن عدم المساواة في العطاء أشعل أحقادهما الداخلية، ودفعهما إلى قتاله في موقعة الجمل، لكنهما اتخذا سبباً ظاهرياً لحربهما، يقنع بعض العامة، هو المطالبة بالثأر لدم عثمان.

نجد في نهج البلاغة مشهداً يبرز فيه طلحة بن عبيد الله مطالباً بدم عثمان، فيبين له الإمام تهافت دعوته بعد أن تخاذل عن نصرته أثناء الفتنة، مع أنه كان باستطاعته أن يقوم بواحد من هذه الأمور الثلاثة :" لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً . كَمَا كَانَ يَزْعُمُ . لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ، وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِباً وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاَثِ، وَجَاءَ بِأَمْر لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ".

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ٢٣٣.

هنا يناقش من اختلف معه بالرأي بطريقة موضوعية، إذ يبيّن كيف أن طلحة لم يتخذ موقفاً محدّداً أثناء الفتنة، فرغم ادّعائه بأن عثمان ظالم لن يناصر الثائرين عليه، وبعد انتهاء الفتنة تغيرموقفه، وصار يراه مظلوماً يتوجب عليه المطالبة بدمه، في حين لم يدافع عنه أثناء الحصار"!.

يتضّح لنا إذا أن المطالبة بدم عثمان كانت ذريعة للفتنة، ونقضاً لبيعة الإمام (ع) الذي هدّد بعدله المصالح الاقتصادية لكل من طلحة والزبير، لذلك أعدّا العدّة لقتاله في موقعة الجمل بمشاركة السيدة عائشة، وقد حاول الإمام أن يثنيهما عن القتال قبل وقوعه، ودعاهما إلى استخدام العقل، ولم يكتف بذلك بل نجده، قبيل القتال، يراجعهما ثانية: " أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ" على حد قوله عليه السلام. عندئذ يدعو ربه قائلاً: "اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلاَ وَعَمِلاَ" [1].

نتعلم هنا آداب الدعاء على الأعداء! لم يدع الله أن يصيبهما الأذى، وإنما دعاه شاكياً همه فقد نقضاه البيعة ونكثا العهد، دون وجه جق، ثم ارادا إضعافه بالحرب، فحرّضا الناس عليه، من أجل مطالبته بالثأر من قتلة عثمان، لذلك يدعو ربّه أن يحبط عملهما، ويبدّد شملهما ويضعف أمرهما، حتى يريا الحق، ويعودا إلى رشدهما، فعرفا أنهما أساءا إليه وإلى المسلمين كافّة. وبعد انتهاء الموقعة بمقتل طلحة والزبير، نجده يعيد السيدة عائشة إلى المدينة، من دون أن يمسّها أي سوء، ويكتفي بالقول: " وَأَمَّا فُلاَنَةُ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ"[2].

رغم أن السيدة عائشة ساندت عدوّيه، لكنّه لم يفكر بالانتقام منها وإنما يحاول أن يلتمس لها العذر، فهي امرأة أصابها ضعف في الرأي، فلم تستطع أن تتخلص من أحقادها القديمة، إذ كانت الأيام تزيدها اشتعالاً، ومع ذلك يغفر لها مؤكداً مكانتها في الإسلام، إنّه لا يريد أن يقتص ممن نصره الله عليهم، تاركاً أمر الحساب لله تعالى، لذلك عاتب قاتل الزبير، وبذلك يجسّد عبر الفعل قوله

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ١٤.
[2]- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨.

في نهج البلاغة: "إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ"[1]؛ إذ أولى الناس بالعفو، في نظره، أقدرهم على العقوبة.

خامساً – الآخر : معاوية

تمت البيعة للإمام علي (ع) بعد مقتل عثمان لكن معاوية في الشام رفض أن يبايعه، وطالبه بدم عثمان، فنجد الإمام يحاول أن يقنعه بالمبايعة غبر مراسلات عديدة، ولم يلجأ إلى خيار السسف إلا بعد أن فشل في الوصول إلى نتيجة عبر الحوار، ويلاحظ المتأمل في كتاب نهج البلاغة أن رسائله لمعاوية قد شكلت معظم الجزء الثالث (وهو الجزء المخصص لرسائل الإمام) مما يدل على مدى صبره في محاورة من يخالفه الرأي، فنجده يردّ على جميع اعتراضاته.

إنه يبدأ بأصل المشكلة (رفض المبايعة) يناقشه في هذا الرفض مبيناً له ضعف حجّته: "إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُل وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لله رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْن أَوْبِدْعَة رَدُّوهُ إِلَى مَاخَرَجَ منه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ"..

يبيّن لمعاوية كيف تمت بيعته بالشورى أي بالطريقة نفسها التي تمت بها بيعة من سبقه من الخلفاء، فقد بايعه أولئك الذن احتلوا مكانة رفيعة في الإسلام (المهاجرون والأنصار) وأن من كان بعيداً عليه أن يقبل بالبيعة، لأن أهل الثقة هم الذين قبلوها؛ ويبيّن له مخاطر رفضه، إنه يخرج عن جادة الإيمان، ويشق صف المسلمين ويعصي الشورى، وكل من ينحرف عن هذه الجادة يلقى السيف، بعد أن يتم نصحه؛ وهذا ما فعله الإمام في خلافه مع معاوية؛ وقد توقف في نقاشه عند السبب الأساسي الذي منع معاوية من المبايعة، لعله يزيل أساس الخلاف بينهما، وهو المطالبة بدم عثمان، ومثل هذه المطالبة تعني اتهام الإمام في المشاركة بمقتله، وعدم نصرته، لذلك نجده في

[1]- المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٤.

رسائله يدعو معاوية إلى استخدام العقل داحضاً هذه التهمة قائلاً: "لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدّني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ في عزلة عنه إلا أن تتجنّى فتجنَ (تستر الحقيقة) ما بدا لك"[1].

ثم نجد الإمام في رسالة أخرى يقارن بين موقفه من الخليفة المقتول وبين موقف معاوية: "أيّنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله، أمّن بذل له نصرته، فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه، وبث المنون إليه حتى أتى قدره إليه"[2].

شتّان بين موقف الإمام الذي نصر عثمان أثناء الفتنة، ويبدو أن الخليفة قد ابعده عنه، بعد أن طالت الفتنة وبدأ الناس يهتفون باسم الإمام للخلافة، لذل "استقعده واستكفّه"، فكان في عزلة عنه حين قتل، فكيف يتهمّه معاوية بالاشتراك بقتله؟ في حين تثبت المقارنة بين موقف الإمام ومعاوية، أن الأخير قد تخاذل عن نصرته رغم أن الخليفة استنجد به، وبذلك يرد التهمة عليه ويبرز تخاذله في الدفاع عن الخليفة أثناء الفتنة، وبالتالي فهو الشريك بمقتله لا الإمام.

وبهذا الحوار استطاع أن يرد عن نفسه، ويبرز تهاون معاوية في نصرة الخليفة (كما فعل طلحة والزبير) ثم يسارع بعد مقتله لمطالبة الإمام بدمه؛ موظفاً بذلك كل ما يستطيع من وسائل، حتى أنه يستغل الآية الكريمة ويؤولها لخدمة مأربه "ولكم في القصاص حياة"[3].

إنّه يبيّن لأهل الشام بأن النص الفرآني، أي المصدر الأساسي للمسلمين، يخوله الحق في المطالبة بدم عثمان من أمير المؤمنين، لذلك يفضح الإمام تجنيه واستغلاله هو وبعض رجال الدين للخطاب القرآني ليثيروا العامة عليه دون وجه حق بل لخدمة مآرب شخصية دنيوية: "فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بَتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلاَ لِسَانِي، وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ وأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ. فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ"[4].

---

[1]- نهج البلاغة، جزء ٣، ص ١١٢.
[2]- المصدر السابق، ص. ٧-٨.
[3]- سورة البقرة، الآية ١٩٧.
[4]- نهج البلاغة، جزء ٣، ص ٣٤.

من الواضح أن معاوية لم يخض المعركة مع الإمام وحده بل استعان برجال يدّعون العلم بالدين لذلك ساعدوه في تأويل القرآن الوجهة التي يريدون، ليقنعوا عامة الناس الذي يغلب عليهم الجهل بصدقهم، فيشاركوا معهم في القتال، لهذا يطلب الإمام منه ان يفيء إلى الله، ويعود إلى الحق، ليحمي نفسه من حبائل الشيطان والكذب.

ويمتد الحوار بينهما من الحاضر (وما جرّه رفض معاوية للبيعة من فتن) إلى الماضي (في بداية الإسلام) فقد لاحظ الإمام أنه لا يكفي المقارنة بين موقفه من الخليفة المقتول وموقف معاوية؛ كما لا يكفي فضح معاوية في استغلاله النص القرآني، بل نجده يعود إلى الماضي ليبرز له أحقيته في الخلافة، ويذكره بسابقته في الإسلام، ثم يبين موقع عشيرة كل منهما من الدين الجديد: "مِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ (أبو جهل)، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ (الحمزة) وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلاَفِ (أبو سفيان)، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينِ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ،)[1].

فالفرق شاسع بين عشيرة الإمام، أول من آمن بالرسول (ص) وعشيرة معاوية آخر من آمن، فكان من الطلقاء. ورغم ذلك الفرق يبين الإمام له كيف لم يستعلِ قومه على قوم معاوية: "فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ولستم هناك". لذلك يرى الإمام في رسالة أخرى أنه من الغريب أن يقارن بمعاوية: "فيا عجباً للدهر إذ يقرن من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه"...

إذا كي يبرز الإمام أحقيته بالخلافة وينأى بالأمة الإسلامية عن الفتنة، يستخدم في حواره مع الآخر الخطاب المنطقي الذي يعتمد لغة التعليل والمقارنة، كما يستخدم لغة الخطاب الديني، فيدعو معاوية إلى تقوى الله، ويبين ان نعيم الدنيا زائل، ويذكره بموقفه بين يدي الله تعالى في الآخرة للحساب، ليعيده إلى جادة الحق، فيحاول أن يستشرف في خطابه مشهد القيامة، حين يحاسب فيه كل امرئ على ما قدم في دنياه، وكي يجعل هذا المشهد مؤثراً يؤسسه على الحوار، فيجعله أكثر رهبة، إذ يبرز عجز الإنسان بين يدي الله عن تصحيح أخطائه، ولن يستطيع أحد حمايته: " وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلاَبِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا، دَعَتْكَ

[1]- نهج البلاغة، جزء ٣، ص ٣٢.

فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لاَ يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هذَا الأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ"[1]. يدعوه إلى إزالة الغشاوة الدنيوية عن عينيه، ليتبصر في آخرته، فالموت آت حين يجبر على ترك زخارف الدنيا ليحاسب على عمله، لذلك عليه أن يعد العدّة لهذا اليوم قبل فوات الأوان.

كونت هذه اللغة الدينية شخصية الإمام وشكلت وجدانه، فكان الإيمان والتقوى أهم جانب في حياته لذلك ابتعد خطابه عن تلك اللغة المستعلية، فقد رأى نجاة الإنسان بالإيمان والتفكر بيوم الحساب، وإن أي اتباع لطريق البغي والزور "سيظل الإنسان في دينه ودنياه، ويبديان خلله عند من يعيبه، وقد علمت أنك غير مدرك فواته".

تخلّق الإمام بأخلاق الإسلام، إذ نراه من أجل إصلاح حال المسلمين يؤخر القتال في صفين إلى درجة أن أصحابه استبطؤوا إذنه فهم في القتال، واتهموه أنه يكره الموت! أو أنه يشك في ولاء أهل الشام لمعاوية ويطمع في انضمامهم إليه، فأجابهم: " فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلى ضَوْئِي، فهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلاَلِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا".

لم يكن قتال الأعداء بغيته، وإنما كان يسعى إلى هدايتهم وحقن دماء المسلمين، وكان الإمام كذلك متحرجاً في أن يكون البادئ في الحرب، مع أنه على حق، لأن القتال كان بينه وبين مسلمين، لذلك أوصى جنده بالتريث وعدم الهجوم، كي لا يتحملوا وزر قتال أخوتهم في الدين، وبهذا يبعد عن جيشه وزر دماء المسلمين.

على النقيض من ذلك، نجد معاوية يبتعد عن القيم الإسلامية، فيوظف النص القرآني لمأربه، بل يستخدم القرآن نفسه وسيلة من وسائل الخداع، إذ أنه حين لاحظ أن القتال في صفين يسير في غير صالحه دعا أصحابه إلى رفع المصاحف، داعياً إلى تحكيم كتاب الله بين الفريقين المتحاربين! لكن هذه الحيلة لا تنطلي على الإمام، وإن انطلت على الكثير من جنده الذين وافقوا

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ١٠.

على التحكيم، فوضح لهم قائلاً: "ما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا له : ما يسعنا ان ندعى لكتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال: ويحكم، إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم كتاب الله، فقد عصوا الله في ما أمرهم، ونبذوا كتابه، فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في قتال عدوكم"...

لعل الفارق الأساسي بين الإمام ومعاوية، ليس كما يقال، إنه لم يكن رجل سياسة ودهاء، وإنما كونه رجلاً تقياً، صدق ما عاهد الله عليه في قلبه وسلوكه، وقد أدرك (ع) ذلك الفارق، لذلك نجده يقول لمن وصف معاوية بالدهاء: "وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَة فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَة كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِر لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بالشَّدِيدَةِ"[1]

سادساً – الآخر: الخوارج

بعد قبول التحكيم عاد الإمام إلى الكوفة، كما سار معاوية بجيشه إلى الشام، وحين وصل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل من جيشه، وعسكروا في حروراء (إحدى قرى الكوفة) لذلك دعوا بـ"الحرورية" ويبدو لنا انه قد انضم إليهم بعض العامة، وكان شعارهم: لا حكم إلا لله، فخرج إليهم (ع) وحاورهم، حتى استطاع أن يقنعهم فدخلوا معه الكوفة.

ويلاحظ أن الإمام لم يتوجه للخوارج بخطاب واحد، وإنما راعى اختلاف مواقعهم نتيجة لاختلاف تجاربهم، لأن بعضهم شارك في القتال في صفين وبعضهم لم يشارك، فكل فريق بحاجة إلى لغة تختلف عن الآخر، لذلك طلب منهم أن ينقسموا إلى فرقتين " فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فَرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلاَمِهِ"، فيحاور من شهد صفين قائلاً: " أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ . حِيلَةً وَغِيلَةً وَمَكْراً وَخَدِيعَةً .: إِخْوانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟، فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ،

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ١٨٠.

وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلى شَأْنِكُمْ، وَالْزمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إلى نَاعِق نَعَقَ: إنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإنْ تُرِكَ ذَلَّ"[1].

إنّه يحاور من شهد صفين، ويبين تهافت منطقهم حين دعوه إلى قبول التحكيم، ورفضوا الاستمرار في القتال، أي رفضوا كل ما دعاهم الإمام إليه، ثم جاؤوا يحاسبونه على ما الزموه به! وقد خاطب من لم يشهد صفين قائلاً: "إنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ... وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ، وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: **(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)**، فَرَدُّهُ إلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بسُنَّتِهِ؛ فَإذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإنْ حُكِمَ بسُنَّةِ رَسُولِهِ فَنَحْنُ أَوْلاَهُمْ بِهِ"[2]

إن الخوارج الذين لم يشهدوا صفين، نجدهم يرفضون قبول الإمام للتحكيم، فيخاطبهم بمنطق يختلف عن أولئك الذين شهدوا صفين وألزموا الإمام بقبول التجكيم، فشرح المقصود من التحكيم، وهو العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص) وبما أن الإمام علي حق فهو اولى الناس بالعودة إلى ذلك.

إذاً ثمة هدف من تأجيل التحكيم، أن يمنح الآخر، سواء العالم والجاهل، فرصة للتفكير لينحاز إلى الحق، فيحقن دماء المسلمين، ولا شك أن هذا التأجيل أزعج الإمام لكنه احتمل ذلك من أجل إحقاق الحق ودفع الباطل، فليس المهم أن يتبع المرء مصلحته الذاتية وإنما أن ينظر في مصلحة عامة المسلمين وقد لاحظ (ع) أن فئة من الخوارج رفضت دعوته هذه، وكانت تصر على أن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم، وأن يتوب كأي كافر، فنجده يناقشهم رغم منطقهم الخاطئ، الذي يكفّره، فيبين لهم كيف أنهم يخطئون ليس في حقه فقط وإنما في حق المسلمين عامة " فإنْ أَبَيْتُمْ إلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّد(صلى الله عليه وآله)بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي!".

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ٥.
[2]- المصدر نفسه، ص ٧٨.

من أجل إقناع الآخر نجده ينطلق في الحوار، هنا، من منطق يرفضه الإمام، لكن الخوارج يؤمنون به، يدعوهم في قضية التكفير، أن يتبعوا سنة رسول الله (ص) الذي كان يعاقب المذنبين دون أهلهم " ولم يمنع سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله"...

يرد على زعم الحوارج أن من أخطأ وأذنب فقد كفر، وبما أنهم يرون الإمام على كفر فإن كل من يتبعه كافر! فأراد الإمام أن يقيم الحجة على بطلان زعمهم، ويجعلهم يقتدون بفعل رسول الله (ص).

حاول ان يحاور الخوارج وقد اقنعهم في البداية بفضل عمق علمه واتساع صدره في الحوار، لكنهم بعد التحكيم جمعوا صفوفهم في النهروان قرب المدائن، وقتلوا عامل الإمام على المدائن، عندئذ ألح أتباعه على قتالهم، فحاول إقناع الخوارج أن يسلموه القتلة أو أن يعودوا إلى طريق الحق وإجماع الأمة، وحين رفضوا سار إلى النهروان، وبعث إليهم رسولاً فقتلوة، فلم ير بدًّا من قتالهم حتى هزمهم.

رغم ذلك كله نجده (ع) يوصي بالخوارج خيراً فيقول لأصحابه: " لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه".

إنه حريص على دم المسلم حتى وإن خالفه الرأي، فهؤلاء الخوارج تنقصهم الأدوات المعرفية، رغم ذلك كانوا يبحثون عن الحقيقة لذلك ضلوا طريقها، في حين كان الآخرون، من أمثال معاوية، يبحثون عن الضلالة وزخرف الدنيا، فوصلوا إليها.

كما أنه حريص، وهو أمير المؤمنين على استيعاب رأي الآخر المختلف، الذي قد يسيئء إليه بأقبح قول أو صفة يمكن أن توجه لمسلم فقد سمع أحد الخوارج رأي الإمام في إحدى المسائل قال: " فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه. فوثب القوم لِيقتلوه. فقال(عليه السلام): رُوَيْداً، إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْب!"[1]

[1]- نهج البلاغة، جزء ٤، ص ٩٨.

يقف رجل عادي أمام أعلى سلطة في الإسلام، التي يجسدها الإمام (ع) ليوجه له تهمة الكفر. فلا ينال عقابه منه، بل يراها أمير المؤمنين مسبة عادية، يردّ عليه بمثلها أو يعفي عنه!.

وحين يطعنه الخارجي (عبد الرحمن بن ملجم) نجده يوصي ابناءه وأقاربه قائلاً: " يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ.أَلاَ لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَة، وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ(صلى الله عليه وآله) يَقُولُ: "إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بَالْكَلْبِ الْعَقُورِ".[1]

يفكر الإمام (ع) وهو على فراش الموت بالكيفية التي يعاقب بها قاتله (ضربة بضربة) فيوصي بأن يطبق القصاص على الطريقة الإسلامية (العقاب من جنس العمل) لهذا يوصي ألا يمثل بجثة القاتل، وأن يلتزموا بالأخلاق التي دعا إليها رسول الله (ص) . لم يهتم الإمام على فراش الموت بقضية عقاب القاتل فقط، التي قد يراها البعض أمراً ذاتياً، وإنما كان مهموماً بوحدة المسلمين وحقن دمائهم! لذلك يوصي أبناءه ألاّ ينشغلوا بالثأر من الجماعة التي ينتمي إليها ابن ملجم (الخوارج) ويقتلوا قاتله فقط، بعيداً عن العقاب الجماعي الذي يثير الفتنة بين المسلمين ويضعفهم!...

الخاتمة:

كان مؤرقا في حياته، كما كان قبيل موته، بالحفاظ على الحياة الإنسانية عامة، من دون تخصيص المسلمين دون غيرهم، لذلك يوصى عامله الذي أرسله إلى مصر (الأشتر النخعي): "إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَة، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَة، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَة، وَانْقِطَاعِ مُدَّة، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيَما تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامةِ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَم حَرَام، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ"[2].

[1]- نهج البلاغة، جزء٣، ص. ٧٧.
[2]- المصدر نفسه ، جزء ٢، ص ٨.

وقد ورد هذا الكلام في سياق حديثه عن عهد الوالي مع الأعداء، " وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ".. ثم أوصاه بعدم سفك الدماء مسلمة وغير مسلمة، بغير حق أو قصاص، وينصحه ألا يفكر بتقوية سلطانه بسفك الدماءّ مبيّناً عاقبة ذلك في الدنيا نقمة الناس، وزوال الخير، وانتشار الفتن، وزوال السلطة.. وفي الآخرة فإن أول ما يحاسب به عند لقاء ربه هو سفكه للدم، نظراً لفظاعة الجرم. يبين لنا حرمة النفس البشرية بغض النظر عن انتمائها للإسلام أو عدم انتمائها، كما يبين للحكام خلل المنطق الذي يرى أن تثبيت الحكم يكون بسفك الدم، فإن من يلجأ إلى هذا الأسلوب سيخسر في دنياه وآخرته.

لا يعني هذا القول أن الإمام (ع) كان يتوانى عن قتال الأعداء، فكل من شهر عليه السيف من المسلمين، لم يبادره بالسيف، بال بالحوار والحجة، إذ كان يحاول أولاً هدايته، فإن لم يهتد أعطاه "حد السيف وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق". ومنذ تفتحه مع بداية الدعوة نجده ينافح عنها بالسيف، يقاتل الكفر والانحراف عن نهج الإسلام حتة آخر لحظة في حياته، وقد عرفت عنه الشجاعة والصبر في ملاقاة الأعداء. حتى أننا نجده يوصي لابنه محمد بن الحنفية، لما أعطاه الراية يوم الجمل: " تَزُولُ الجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ! عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعِرِ اللهَ جُمجُمَتَكَ، تِدْ في الأَرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى القَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ".

يتسع صدر الإمام (ع) قبل القتال، حباً في حقن دماء المسلمين، ولكن حين لا ينفع الحوار ويصر الآخر على القتال يواجهه بشجاعة وثبات، فيعلمنا ألاً نجبن عن قتال المعتدي. وبذلك يعطينا المثل الأعلى في قبول الآخر المختلف، رغم أنه يملك السلطة التي تتيح له قتاله والقضاء عليه، وخير دليل على ذلك أنه لم يبدأ الآخر بقتال قط! وهذا ما أثبتته كتب التاريخ ولحظناه من خلال خطبه ومراسلاته في كتاب نهج البلاغة، كما يعطينا المثل الأعلى في الدفاع عن الحق والثبات من أجله مهما تكن التضحيات.

نما لديه حس العدل، فلم نجده يجور حتى على خصومه، فجسد لنا المثل الإسلامية خير تجسيد عبر أقواله وأفعاله، وهذا ليس غريباً على ربيب رسول الله (ص).

لقد كان الإمام (ع) قدوة لنا في التعامل الموضوعي مع الآخر المختلف، يعلي شأن الحوار معه، فلا يرفع سيف الحق في وجهه، قبل أن يجادله بالتي هي أحسن، لعله يفيء إلى حكم الله!.

ولقد بلغ أعلى ذرى الموضوعيه حين نجده يطالب محبيه ومبغضيه على السواء بالاعتدال في المشاعر اتجاهه، فيقول: "سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ"[1]. وهكذا فإن أي مبالغة في نظره (ع) في الحب والبغض تودي بالإنسان إلى التهلكة، والانحراف عن جادة الحق، لذلك يطالبنا بأن نسير في الطريق الوسطى التي تؤدي إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص)، فتجمع كلمة المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

[1]- نهج البلاغة، جزء ٢، ص ٨.